من تراب الطريق (٣٤٤)

نعمة الصبر (*)

كلمة «الصبر» تكاد تكون أكثر الكلمات العربية استخدامًا فى حياة الناس .. تجرى على ألسنتهم بالسليقة والفطرة ، وقلما يتأملون معناها .. أو يدركون غايتها .. مع أن الكلمة تسللت إلى وجدان الناس من كتب الأديان .. والقارئ للعهدين القديم والجديد ، يصادفه التنويه بالصبر فى الأناجيل وفى المزامير .. فالذى يثبت ويصبر إلى المنتهى هو الذى يخلص (متى ١٠ : ٢٢ ، ٢٤ : ١٣ ومرقس ١٣ :١٣) .. والدعوة إلى الصبر والاصطبار هى الطريق إلى الرب : «فاصطبر للرب اسائر» (أشعيا ١٧ : ٨) .. «انتظر الرب واصبر له» (المزامير ٧ : ٣٧) .. فالثمرة تأتى بالصبر .. «بصبركم اقتنوا أنفسكم» .. «وليعطكم الله الصبر والتعزية» .. «يحسب قدرة مجده لكل صبر» .. «امتحان إيمانكم ينشئ صبرا»

والصبر فى القرآن المجيد من «عزم الأمور» .. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] .. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] .. ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .. ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] .. التواصى بالصبر واجب : ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

(*) المال ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٩

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧] .. وهو عدة الإنسان فى الشدائد والملمات : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] .. والصابرون أحباب الله الذين يحبهم سبحانه وتعالى ويحبونه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] .

على أن الناس درجوا على إحلال ألسنتهم محل عقولهم وقلوبهم .. تدوولت الكلمة وكثر ترديدها دون تمثل معناها .. ساهم فى ذلك كثرة الكلام والتفاصح وقلة العقل والتأمل .. تتردد كلمة الصبر فى الأسواق ، وفى المشاحنات .. وفى الأمثال : «الصبر طيب» .. «الصبر مفتاح الفرج» .. «إن الله مع الصابرين» .. وتسللت الكلمة المتكررة الترديد بغير تفقه ـ تسللت إلى أسماء الإناث والذكور .. فدرج الناس على أسماء : صابر ، وصبرى وصابرين ، وصابرة ، وصبيرة ، وعبد الصبور .. وانتقلت من لغة التخاطب والأمثال إلى منظومات الشعراء وأبيات الأغانى .. ما بين عدة الصبر للمغبونين والمظلومين والمحرومين ، على نحو أغنية : الصبر والإيمان ، دول جنة المحروم .. وأحيانا فى لغة المحبين والعاشقين .. فهذه تنادى العطارين أن يدلوها على منبع الصبر .. وآخر يتشكى من لومه على صبر قلبه على محبوبته التى هان الود عليها .. وهذه تشكو سراب الصبر : «وصفوا لى الصبر لقيته خيال وكلام فى الحب يادوب يتقال».. حتى إذا لم يعد فى قوس الصبر منزع ، تتفجر اللواعج: «للصبر حدود»! .. وهذا من كثرة صبره اشتكى الصبر منه .. وهذا صابر وعمره أيامه تجرى ، أو تائه يخاف أغوار بحوره وبُعد شطآنه .. وهذا يتغنى

بموال : «أنا بعلم الصبر يصبر على صبر حبيب جارنا ، وبقول يا صبر صبرك عليه حتى يجى يوم جارنا» !.. ومن لبنان يصدح صناجة الجبل : «يا عينى على الصبر» !!

قد لا تجد فى أى لغة من اللغات كلمة كالصبر قادرة هذه القدرة على الإيحاء بمعانى الحب والعشق والغرام ، قدرتها على الدعوة إلى الجد والالتزام وعزم الأمور .. تجدها فى الكتب السماوية فى معرض حث الإنسان على «قيمة» ترتد إليها كل الأمور ، و «عدة» يستعين بها فى الشدائد والملمات .. وتجدها فى الأشعار والأغانى مصورة للصبر على الحب والعواطف وعلى الصد والهجران .. وتجدها فى لغة العامة أداة جاهزة لتطييب الخواطر وكفكفة الغضب أو العجلة والاندفاع !

ظنى أن هذه الصلاحية المتعددة الاستعمال ، مردها إلى أن الصبر قوة وعزيمة .. هذه القوة تترجم إلى قدرة مانحة لقدرات أخرى تصاحب الصبر وتدفع الممسك به إلى المضى فى جده إن كان جادًا ، وعلى تحمل النوائب إن أحاط به مكروه .. وتحصنه من فقدان خيط الأمل أو خبو وانطفاء الروح .. ولا بأس بعد ذلك من تعدد أنواع وأحوال الاستخدام .. كشأن عصا موسى الذى قال لربه إنه يهش بها على غنمه وله فيها مآرب أخرى !

والصبر ملكة داخلية .. واستعداد ومران .. فيهما اعتياد وترويض على عدم مفارقة الهدوء ، ومقابلة الصعاب باتزان وثبات ..

لقد أوشك الناس فى عصرنا على مفارقة الثقة فى عقولهم ، فجمحت ردود أفعالهم ، وفقدوا الاتزان والثبات ، وهما معنى وعلامة الصبر !!